

عِلْمُ الدِّفَاعِيَّاتِ

المحاضرة ٢: الغرض من الدفاعيات

أ.ر. سي. سرول

نُتَابِعُ الْآنَ دِرَاسَتَنَا لِعِلْمِ الدِّفَاعِيَّاتِ. فِي الْمُحَاضَرَةِ الْأُولَى، رَأَيْنَا أَنَّ الْمُصْطَلَحَ "apologetics" أَي عِلْمِ الدِّفَاعِيَّاتِ، يَأْتِي مِنَ الْكَلِمَةِ الْيُونَانِيَّةِ "apologia". نَجِدُ هَذِهِ الْكَلِمَةَ فِي الْعَهْدِ الْجَدِيدِ، حَيْثُ حَثَّ الرَّسُولُ بَطْرُسُ الْمُؤْمِنَ أَنْ يَكُونَ مُسْتَعِدًّا دَائِمًا لِلْمُجَابَبَةِ عَنْ سَبَبِ الرَّجَاءِ الَّذِي فِيهِ. وَأَشْرُتْ إِلَى أَنَّ مِهْمَةَ الْكَنِيسَةِ الْأُولَى تَعَلَّقَتْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْيَانِ بِالرَّدِّ عَلَى النُّقَادِ الَّذِينَ يُقَدِّمُونَ تَقَارِيرَ خَاطِئَةٍ عَنِ السُّلُوكِ الْفِعْلِيِّ لِلْمُجْتَمَعِ الْمَسِيحِيِّ وَمُعْتَقَدَاتِهِ دَاخِلَ الْإِمْبْرَاطُورِيَّةِ الرُّومَانِيَّةِ. لَكِنِّي ذَكَرْتُ أَيْضًا أَنَّ آبَاءَ الْكَنِيسَةِ الْأُولَى مِنَ الْمُفَكِّرِينَ خَاصًّا نَزَاعًا مَعَ فَلَاسِفَةِ الْإِمْبْرَاطُورِيَّةِ الْهَلْنِسِيَّةِ، وَأَنَّ تِلْكَ الْجِدَالَاتِ الْفَلَسَفِيَّةِ سَاهَمَتْ فِي صِيَاغَةِ الْكَنِيسَةِ لِعِلْمِ دِفَاعِيَّاتِ مُتَكَامِلٍ. أَقْصِدُ بِذَلِكَ أَنَّ الْكَنِيسَةَ مَارَسَتْ الدِّفَاعِيَّاتِ مِنْ خِلَالِ أَنَّهُ كَلَّمَ أَبَدِي أَحَدَهُمْ أَيَّ اعْتِرَاضٍ، وَجَبَ الرَّدُّ عَلَيْهِ بِالتَّفْصِيلِ.

أَتَذَكَّرُ أَيَّ ذَهَبْتُ مِنْذُ عِدَّةِ سَنَوَاتٍ إِلَى الْجَامِعَةِ مَعَ جُونِ جِيست، الْكَارِزِ الْبَرِيطَانِيِّ. كَانَ جُونُ فِي مِهْمَةٍ كِرَارِيَّةٍ بِالْجَامِعَةِ، وَكُنْتُ بِرِفْقَتِهِ. وَكُنْتُ بِجُورِ جُونِ حِينَ بَدَأَ وَاحِدٌ مِنْ أَكْثَرِ الطُّلَابِ عَقْلَانِيَّةً يَطْرَحُ عَلَيْهِ أَسْئَلَةً وَاعْتِرَاضَاتٍ حَوْلَ مِصْدَاقِيَّةِ الْمَسِيحِيَّةِ. وَفِي صَبْرٍ، ابْتَدَأَ جُونُ يُجِيبُ عَنِ أَسْئَلَةِ هَذَا الطَّالِبِ، سُؤَالَ تَلْوِ الْآخَرَ. وَبَعْدَمَا أَجَابَ عَلَى نَحْوِ عِشْرِينَ سُؤَالَ، وَانْتَقَلَ الشَّابُّ إِلَى السُّؤَالِ الْخَادِي وَالْعِشْرِينَ، قَاطَعْتُهُ قَائِلًا: "مَهْلًا". فَقَالَ: "مَا الْأَمْرُ؟" أَجَبْتُهُ: "لَقَدْ أَجَابَكَ لِتَوَّهَ عَلَى عِشْرِينَ اعْتِرَاضًا بِطَرِيقَةٍ مُقْنِعَةٍ، لَكِنِ بِمُجَرَّدِ رَدِّهِ عَلَى سُؤَالٍ تُسَارِعُ إِلَى طَرْحِ السُّؤَالِ التَّالِي. إِلَى مَتَى سَيَسْتَمِرُّ ذَلِكَ؟ أَشْعُرُ بِشَكْلِ مَا أَنْتَ مُتَحَيِّرٌ ضِدَّ الْمَسِيحِيَّةِ، وَبِأَنَّكَ فَقَطْ تُرِيدُ الْمُجَادَلَةَ حَوْلَهَا طَوَالَ الْيَوْمِ، بَعْضُ النَّظَرِ عَنِ جَوْدَةِ الرُّدُودِ". أَوْقَفَهُ ذَلِكَ عِنْدَ حَدِّهِ. أَوْدُ الْقَوْلِ إِنَّ هَذِهِ هِيَ مِهْمَتُنَا، لِأَنَّهُ مَهْمَا كَانَ عَدُوُّ الْاعْتِرَاضَاتِ، يَجِبُ الرَّدُّ عَلَيْهَا حَتَّى النِّهَايَةِ. وَالنَّاسُ يُبْدُونَ اعْتِرَاضَاتٍ بِالْفِعْلِ.

لَكِنِ مِنْ نَاحِيَةِ أُخْرَى، هُنَاكَ مَا أَسْمِيهِ بِالْمِهْمَةِ الْإِجْبَابِيَّةِ لِعِلْمِ الدِّفَاعِيَّاتِ، حَيْثُ تُصِغُ الْفَلَسَفَةُ الْمَسِيحِيَّةُ دِفَاعًا فَلَاسِفِيًّا كَامِلًا عَنِ مِصْدَاقِيَّةِ الْمَسِيحِيَّةِ، يُمَكِّنُ تَطْبِيقَهُ عَلَى كُلِّ ثِقَافَةٍ، وَفِي كُلِّ بَيْئَةٍ لَاهُوتِيَّةٍ أَوْ فَلَاسِفِيَّةٍ تُوجَدُ فِيهَا الْكَنِيسَةُ. إِذَنْ، مِنْ هَذِهِ النَّاحِيَةِ، يَتَّخِذُ الدِّفَاعِيُّ وَضْعَ الْهُجُومِ، وَيُصِغُ حُجَّةً تُؤَيِّدُ الْمَسِيحِيَّةَ.

رَأَيْنَا ذَلِكَ فِي تَارِيخِ الْكَنِيسَةِ. فَقَدْ رَأَيْنَا الدِّفَاعِيِّينَ يَدْفَعُونَ وَيُهَاجِمُونَ عَلَى حَدِّ سَوَاءٍ، مُجِيبِينَ اعْتِرَاضَاتِ النَّاسِ، وَفِي الْوَقْتِ ذَاتِهِ، مُقَدِّمِينَ أَدْلَتَهُمُ الْمُؤَيَّدَةَ لِلْحَقِّ. وَاتَّبَعَتْ مِنْهَجِيَّاتٌ مُخْتَلِفَةٌ لِتَنَاوُلِ عِلْمِ الدِّفَاعِيَّاتِ. وَاخْتَلَفَ الْمَسِيحِيُّونَ مَعًا عَبْرَ التَّارِيخِ حَوْلَ تَحْدِيدِ أَفْضَلِ مَنْهَجِيَّةٍ أَوْ اسْتِرَاطِيَّةٍ لِلدِّفَاعِ عَنِ الْمَسِيحِيَّةِ.

شَارَكْتُ مُؤَخَّرًا فِي بَرْنَامِجٍ إِذَاعِيٍّ مَعَ لَاهُوتِي لُوْثَرِيٍّ. وَمِنَ الْأُمُورِ الَّتِي نَاقَشْنَاهَا هُوَ تَحْدِيدُ نُقْطَةِ الْإِنْطِلَاقِ فِي عِلْمِ الدِّفَاعِيَّاتِ. وَقَطْعًا، كَانَ رَأْيِي دَائِمًا هُوَ أَنَّ نُقْطَةَ الْإِنْطِلَاقِ فِي الدِّفَاعِيَّاتِ الْمَسِيحِيَّةِ هِيَ إِثْبَاتُ وُجُودِ اللَّهِ. فَإِنْ اسْتَطَعْتُ إِثْبَاتَ ذَلِكَ مِنَ الْبِدَايَةِ، يَصِيرُ الْبَاقِي سَهْلًا. وَالْمَنْهَجِيَّةُ الَّتِي أَتَّبَعُهَا لِإِثْبَاتِ وُجُودِ اللَّهِ - كَمَا سَتَرَى فِي هَذِهِ السِّلْسِلَةِ - هِيَ اسْتِخْدَامُ الْحُجَجِ الْعَقْلَانِيَّةِ. لَكِنَّ صَدِيقِي الْلُوْثَرِيَّ قَالَ: "كَلَّا، كَلَّا؛ بَلْ أَفْضَلُ وَسِيلَةٌ هِيَ الْحُجَجُ التَّارِيخِيَّةُ، بَدَأَ مِنْ يَسُوعَ التَّارِيخِيَّ، ثُمَّ رُجِعًا إِلَى الْإِلَهِ الَّذِي أَرْسَلَ يَسُوعَ التَّارِيخِيَّ". وَبِالطَّبَعِ، اخْتَلَفْتُ مَعَهُ حَوْلَ مَا إِذَا كَانَتْ هَذِهِ أَنْسَبَ مَنْهَجِيَّةً. وَيَقُولُ آخَرُونَ إِنَّ أَوَّلَ مَا يَجِبُ إِثْبَاتُهُ هُوَ سُلْطَةُ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ، لِأَنَّكَ إِنْ أَثْبَتْتَ ذَلِكَ، تَكُونُ قَدْ أَثْبَتْتَ وُجُودَ اللَّهِ، وَالْوَهِيَّةَ الْمَسِيحِ، وَسَائِرَ الْأُمُورِ الْأُخْرَى بِمُوجِبِ تِلْكَ السُّلْطَةِ. وَلِذَا، سَنَصْرِفُ بَعْضَ الْوَقْتِ فِي هَذِهِ السِّلْسِلَةِ فِي النَّظَرِ إِلَى الْمَنْهَجِيَّاتِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَسَابِقِينَ فِي عَضُودِ ذَلِكَ أَوْجَهَ الْاِخْتِلَافِ بَيْنَ مَنْهَجِيَّاتِ الْآخَرِينَ وَمَنْهَجِيَّتِي.

لَكِنَّ، مِنَ الْأَسْئَلَةِ الَّتِي تُنْطَرَحُ عَلَيَّ كَثِيرًا، لِأَنِّي مَعْرُوفٌ بِاعْتِنَائِي لِلْأَهْوَاتِ الْمُصْلِحِ، الَّذِي يُعَلِّمُ بِأَنَّ لَا أَحَدَ لَدَيْهِ الْقُدْرَةُ الْأَخْلَاقِيَّةُ عَلَى التَّجَاوُبِ إِجَابِيًّا مَعَ الْإِنْجِيلِ أَوْ مَعَ حَقَائِقِ الْمَسِيحِيَّةِ، مَا لَمْ يُعَيِّرِ اللَّهُ الرُّوحَ الْقُدْسَ قَلْبَهُ. فَلِأَنَّ نَوْمًا بِذَلِكَ - أَيِّ بَأْتُهُ لَا يُمَكِّنُ اجْتِدَابَ أَحَدٍ إِلَى الْمَسِيحِيَّةِ أَوْ الْخَلَاصِ بِالْحُجَجِ الْمُنْطَقِيَّةِ، وَلَا يُمَكِّنُ بِبَسَاطَةٍ إِقْنَاعَهُ سِوَاءَ الْبَرَاهِينِ الْمُنْطَقِيَّةِ، أَوْ بِسُمُوكَلَامِ الَّذِي تُضِيفُهُ إِلَى الْحَدِيثِ، لَكِنَّكَ عَاجِزٌ عَنِ تَغْيِيرِ نَفْسِ شَخْصٍ آخَرَ، وَالرُّوحَ الْقُدْسَ وَحْدَهُ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى ذَلِكَ - اسْتَنْتَجَ كَثِيرُونَ مَا يَلِي: "يَبْدُو أَنَّ عِلْمَ الدِّفَاعِيَّاتِ إِذَنْ مَضِيعَةٌ كَبِيرَةٌ لِلْوَقْتِ. فِيمَا أَتْنَا لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نُخَلِّصَ أَحَدًا مِنْ خِلَالِهِ، فَلِمَ الْعَنَاءُ؟" وَبِالتَّالِي، كُلُّ مَنْ يَعْتَنِقُ التَّقْلِيدَ الْمُصْلِحَ يُطَالَبُ كَثِيرًا بِالْإِجَابَةِ عَنِ السُّؤَالِ التَّالِي. "إِذَا كَانَ صَحِيحًا أَنْ عِلْمَ الدِّفَاعِيَّاتِ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُخَلِّصَ أَحَدًا، فَلِمَ نُمَارِسُهُ؟ وَمَا الْعَرَضُ مِنَ الدِّفَاعِيَّاتِ؟" هَذَا مَا أَوَدُّ تَنَاوُلَهُ الْيَوْمَ.

لِنَرْجِعَ إِلَى النَّصِّ الَّذِي أَشْرْتُ إِلَيْهِ فِي الْمُحَاضَرَةِ الْمَاضِيَّةِ مِنْ رِسَالَةِ بَطْرُسَ الْأُولَى، الْأَصْحَاحِ الثَّلَاثِ، وَالآيَةِ الْخَامِسَةِ عَشْرَةَ. سَأَذْكُرْكُمْ بِمَا تَقُولُ: "قَدِّسُوا الرَّبَّ الْإِلَهَ فِي قُلُوبِكُمْ. مُسْتَعِدِّينَ دَائِمًا لِمُجَاوَبَةِ كُلِّ مَنْ يَسْأَلُكُمْ عَنْ سَبَبِ الرَّجَاءِ الَّذِي فِيكُمْ بِوَدَاعَةٍ وَخَوْفٍ. وَلَكُمْ ضَمِيرٌ صَالِحٌ، لِكَيْ يَكُونَ الَّذِينَ يَشْتُمُونَ سِيرَتَكُمْ الصَّالِحَةَ فِي الْمَسِيحِ يُخْزَوْنَ فِي مَا يَفْتَرُونَ عَلَيْكُمْ كِفَاعِلِي شَرًّا". فَبِحَسَبِ سِيَاقِ هَذَا النَّصِّ الَّذِي يُحْتُّ فِيهِ عَلَى مُمَارَسَةِ الدِّفَاعِيَّاتِ، أَحَدُ أَهَمِّ الْأَعْرَاضِ هُوَ إِصَابَةُ أَعْدَاءِ الْمَسِيحِ وَكَيْسِيَّتِهِ بِالْحُزِيِّ.

يَذَكِّرُنِي ذَلِكَ بِجُونِ كَالْفِينِ الَّذِي يُعْتَبَرُ أَبَا الْكَالْفِينِيَّةِ. فَأَكْثَرُ مَنْ آمَنَ بِأَنَّ الرُّوحَ الْقُدْسَ لَا زِمَ لِخَلَاصِ أَحَدِهِمْ هُوَ جُونُ كَالْفِينِ. وَأَكْثَرُ مَنْ آمَنَ بِأَنَّ الدِّفَاعِيَّاتِ لَا يُمَكِّنُ أَنْ تُخَلِّصَ أَحَدًا هُوَ جُونُ كَالْفِينِ. لَكِنَّ بِالْتَّأَكِيدِ، لَمْ يَتَخَلَّ جُونُ كَالْفِينِ عَنِ هَذِهِ الْمُهْمَةِ أَوْ هَذَا التَّكْلِيفِ الَّذِي كَلَّفْنَا بِهِ فِي الْكَنِيسَةِ. وَفِي كِتَابِهِ "أُسُسُ الدِّينِ الْمَسِيحِيِّ"، فِي أَتْنَاءِ

مُحَاوَلَتِهِ إِثْبَاتِ سُلْطَةِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ، قَدَّمَ عَدَدًا مِنَ الْبَرَاهِينِ الْمُحَدَّدَةِ الْمُؤَيَّدَةِ لِتَرَاهَةِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ، مِنْهَا حُجَجٌ إِثْبَاتِيَّةٌ. وَأَقَرَّ فِي مَرَحَلَةٍ مُعَيَّنَةٍ بِأَنَّ كُلَّ هَذِهِ الْحُجَجِ، بِقَدْرِ قُوَّتِهَا، لَا يُمَكِّنُهَا الْبَتَّةَ أَنْ تُقْبَعَ أَحَدًا بِالِإِدْعَانِ لِلْبَرَاهِينِ، مَا لَمْ يُجِرِ اللَّهُ الرُّوحَ الْقُدُسَ عَمَلَهُ الْمُحْيِي فِي ذَهْنِ ذَلِكَ الشَّخْصِ وَنَفْسِهِ. لَكِنْ ظَلَّ كَالْفَنِّ يَقُولُ إِنَّ الْبَرَاهِينَ وَالْحُجَجَ الَّتِي يُقَدِّمُهَا كَافِيَةٌ لِسَدِّ أَفْوَاهِ الْمُشَاكِسِينَ. هَذِهِ عِبَارَةٌ لِأَفْتَةٍ - سَدِّ أَفْوَاهِ الْمُشَاكِسِينَ. لَيْسَ تَغْيِيرَ قُلُوبِ الْمُشَاكِسِينَ، وَإِنَّمَا سَدِّ أَفْوَاهِهِمْ.

تَعْيِشُونَ الْيَوْمَ فِي مُجْتَمَعٍ حَيْثُ تَتَعَرَّضُ حَقَائِقُ الْمَسِيحِيَّةِ فِي الْمَجَالِ الْفِكْرِيِّ لَيْسَ فَقَطْ لِلرَّفْضِ، بَلْ لِلِاسْتِهْزَاءِ أَيْضًا. كَثِيرُونَ مِنْهَا أُرْسِلُوا أَبْنَاءَهُمْ وَبَنَاتِهِمْ إِلَى الْجَامِعَةِ، حَيْثُ أَصْبَحُوا أَصْحُوكَةَ الْأَسَاتِذَةِ، الَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ فِي الصَّفِّ بِسَبَبِ سَدِّ جَنَّتِهِمْ، لِأَنَّهُمْ يَقْبَلُونَ دِيَانَتَهُمْ الْمَسِيحِيَّةَ بِالْإِيمَانِ؛ وَلَا يَحْطَى التَّزَامُّهُمْ الْمَسِيحِيُّ بِالْإِحْتِرَامِ مِنَ النَّاحِيَةِ الْعَقْلِيَّةِ. وَلِذَا فَالْيَوْمَ، يُهَاجِمُ الْمَسِيحِيُّونَ بِعُنْفٍ، وَيَتَهَمُونَ "بِوَضْعِ عُقُولِهِمْ عَلَى الرَّفِّ"، وَبِأَنَّهُمْ اضْطُرُّوا أَنْ "يُصَلِّبُوا عُقُولَهُمْ" حَتَّى يَقْبَلُوا الْمَسِيحِيَّةَ مِنَ الْأَسَاسِ.

عِنْدَمَا تَقْصِدُ أَرْقَى الْجَامِعَاتِ الْيَوْمَ، وَتَدْخُلُ قِسْمَ الْفَلَسَفَةِ، قَدْ تَلْتَقِي بِفَلَسَفَةٍ لَا يَقْبَلُونَ الْمَسِيحِيَّةَ عَلَى الْإِطْلَاقِ، لَكِنْ عِنْدَمَا يَفْحِصُونَ فِكْرَ أَوْغُسْطِينُوسَ، مَثَلًا، أَوْ أُنْسِلْمَ، أَوْ تُوْمَا الْأَكُوِيْنِي، أَوْ جُونَاثَانَ إِدْوَارْدز - وَهُمْ بَعْضٌ مِنْ أَعْظَمِ الدَّفَاعِيِّينَ الَّذِينَ أُحْبَبَتْهُمُ الْكَنِيسَةُ - رُبَّمَا لَا يَتَفَقَّهُونَ مَعَهُمْ فِي الرَّأْيِ، وَلَا يَرْضَخُونَ لِحُجَجِهِمْ، لَكِنْ نَادِرًا مَا يَسْتَهْزِئُ عَالِمٌ جَادٌ بِتُوْمَا الْأَكُوِيْنِي. قَدْ لَا يَتَفَقَّهُونَ مَعَهُ فِي الرَّأْيِ، لَكِنْ لَنْ تَسْتَطِيعَ أَنْ تَكُونَ أَمِينًا مِنَ النَّاحِيَةِ الْفِكْرِيَّةِ، حَتَّى فِي يَوْمِنَا هَذَا، إِلَّا حِينَ تَتَعَامَلُ مَعَ الْحُجَجِ الدَّفَاعِيَّةِ الْمُؤَيَّدَةِ لِلْإِيمَانِ بِوُجُودِ اللَّهِ الَّتِي قَدَّمَهَا، مَثَلًا، تُوْمَا الْأَكُوِيْنِي، لِأَنَّهُ عِمْلَاقٌ فِكْرِيٌّ مُعْتَرَفٌ بِهِ عَبْرَ تَارِيخِ الْفِكْرِ النَّظَرِيِّ.

وَفِي الْعُصُورِ الْوُسْطَى، فِي جَامِعَاتِ أوروْبَا، حَيْثُ كَانَ عِلْمُ اللاهوتِ يُعْتَبَرُ مَلَكَتَةَ الْعُلُومِ، وَالْفَلَسَفَةُ وَصِيفَتَهَا - أَيُّ حَيْثُ اعْتَبِرَتِ الْفَلَسَفَةُ الْوَصِيفَةَ الَّتِي تَحْدُمُ الْمَلَكَتَةَ - كَانَ هُنَاكَ مُلْحَدُونَ. كَانَ هُنَاكَ مُلْحَدُونَ فِي الْعُصُورِ الْوُسْطَى، لَكِنَّهُمْ كَانُوا صَامِتِينَ فِي الْمُجْتَمَعِ، لِأَنَّهُ سَادَ افْتِرَاضٌ فِي عَالَمِ الْفِكْرِ أَنَّ انْكَارَ وُجُودِ اللَّهِ، مَثَلًا، بِمَثَابَةِ انْتِحَارِ فِكْرِيٍّ، لِأَنَّ الدَّفَاعِيِّينَ الْمَسِيحِيِّينَ آنَازَكَ قَدَّمُوا بَرَاهِينَ دَامِعَةً، حَتَّى إِنَّ الَّذِينَ لَمْ يَقْبَلُوا الْإِيمَانَ التَّزَمُّوا الصَّمْتَ. وَهَذَا مَا قَالَهُ كَالْفَنِّ عَنْ مُهِمَّةِ الدَّفَاعِيَّاتِ، وَهِيَ سَدِّ أَفْوَاهِ الْمُشَاكِسِينَ، أَيُّ كَبْحِ اسْتِهْزَاءِ الَّذِينَ بِلَا كَابِحِ بِالْإِيمَانِ الْمَسِيحِيِّ.

تَذَكَّرُوا أَنَّ بَطْرُسَ قَالَ فِي الْقُرْنِ الْأَوَّلِ إِنَّ الْمَسِيحِيِّينَ كَانُوا يُشْتَمُونَ - أَيُّ يَتَعَرَّضُونَ لِلِاسْتِهْزَاءِ؛ وَقَالَ: "يَجِبُ أَنْ تَكُونُوا مُسْتَعِدِّينَ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ لِتَقْدِيمِ رَدِّ عَلَى الشَّتَائِمِ أَوْ الِاسْتِهْزَاءِ، مُجَابِبِينَ عَنْ سَبَبِ الرَّجَاءِ الَّذِي فِيكُمْ، دُونَ أَنْ تَكْتَفُوا بِقَوْلِ: 'أَوْ مِنْ لَأَنِّي قُتِمْتُ بِقَفْرَةِ إِيمَانِي، وَقَفَرْتُ فِي الْهَآوِيَةِ، رَاجِعًا أَنْ يَلْتَقِطَنِي يَسُوعُ'، بَلْ بِالْآخَرَى، نَحْنُ مَدْعُودُونَ كَمَسِيحِيِّينَ إِلَى تَقْدِيمِ رُدُودِ سَلِيمَةٍ عَلَى الَّذِينَ يُثِيرُونَ شُكُوكًا وَاعْتِرَاضَاتٍ عَلَى حَقَائِقِ الْمَسِيحِيَّةِ، لِلْوُقُوفِ

في وجه الذين يستهزئون بالإيمان، وإصابتهم بالحزني". تذكرون أنه في إسرائيل في العهد القديم، قال كاتب المزامير إنَّ الجاهل هو الذي يقول في قلبه "ليس إله".

لكن في مجتمعاتنا اليوم، يُعتبر من يقول إنه يوجد إله جاهلاً، وغير علمي، وساذجاً، وغير عقلائي، إلى آخره. أيضاً خلال القرنين الماضيين، كما أظن، في مجتمعاتنا المسيحية، سلمت الكنيسة الأدوات الدفاعية، أو أسلحة محاربتنا، في يد الوثنيين. وقال الوثنيون لسنوات طويلة إنَّ المسيحية غير منطقية، وغير علمية. وظلوا يُحزنوننا لقرون بأنَّ "الوسيلة الوحيدة للإيمان بمصداقية المسيحية هي القيام بفترة إيمان غير محسوبة". ويقولون إنَّ "المنطق والعلم ليسا في صفنا". لكنني سأحاول أن أثبت في هذه السلسلة عن علم الدفاعيات أنه من غير المنطقي إنكار وجود الله، ومن غير العلمي رفض المصداقية التاريخية ليسوع التاصرري. بتعبير آخر، لست على استعداد أن أسلم العقلائية والبحث العلمي التجريبي في يد غير المؤمنين. هذه هي أدوات المعرفة التي أعطاها الله ليفكر بها الإنسان، ويدرس، ويقبل الواقع، ويكتشف الحق. وإن كانت المسيحية صحيحة، أيها السادة - وهذا هو إيماني - فيجب ألا نخشى من أدوات المعرفة الطبيعية، أو من البحث العلمي، لأنَّ التطبيق الموضوعي وغير المتحيز لأدوات المعرفة، إن كانت المسيحية صحيحة، يجب أن يُثبت مصداقية المسيحية، لا أن يدحضها. بتعبير آخر، يجب ألا نخشى شيئاً، مثل المنطق أو البحث العلمي. فإن حشينا تلك الأمور، فربما ما لدينا ليس إيماناً على الإطلاق، بل مجرد سداجة. كثيرون يدعون أن لهم إيماناً، لكنهم مجرد أناس يؤمنون بالحرفات. وربما يكونون سعيدي الحظ كفاية ليؤمنوا بالأمور الصحيحة لأسباب خاطئة. لكن يجب أن نكون قادرين ليس فقط على إخبار العالم بما نؤمن به، بل أيضاً بسبب إيماننا به.

في إطار حديثنا عن كالفن وعن سد أفواه المشاكسين، دعوني أشير إلى أمر آخر مهم للغاية في هذا الصدد. صنع كالفن تفرقة، تحتاج أن نفهمها، بين الإثبات والإقناع - الإثبات والإقناع. قال كالفن: "بإمكاننا جمع البراهين والحجج الإثباتية السليمة بكل موضوعية، إلى حد إثبات الفرضية، لكن يظل الناس غير مقتنعين بها". هذا أمر صحيح وواقعي. فأنكم تلتقون أشخاصاً طوال الوقت، وتحوضون نقاشاً معهم، مقدمين لهم الحجج الواضحة. وربما تؤيد كل البيانات موقفكم، لكنهم مع ذلك يرفضونها، ويرفضون الرضوخ لها، لأنهم معاندون ومتمحزون، ولا يريدون الإصغاء إليك. ولا يريدون أن تقف الحقائق في طريق أفكارهم. إذن، قد يظل البعض غير مقتنعين مع كون الأدلة دامغة. ولهذا، قال كالفن إنَّ مهمة الدفاعي في الكنيسة ليست الإقناع بل الإثبات. الله وحده سيُنشئ الإدعان للحجة السليمة. ودون عمل الروح، لن يخضع الناس، بسبب التحيز الشديد في قلب الإنسان ضدَّ أمور الله. إذن، لا يقتصر الأمر على كوننا نصارح مع الجهل، لكننا نصارح مع التحيز ضدَّ أمور الله. أفصِدْ بهذا أنه لظالماً كان الإنجيل عثرة للبر الساقطين. ولذا، على الدفاعي أن يُؤدِّي عمله وهو مدرك أن مهمته ليست الإقناع بل الإثبات،

أَيُّ تَقْدِيمِ حُجَّةٍ سَلِيمَةٍ. وَإِنْ لَمْ يَقْبَلْ أَحَدُهُمُ الْحُجَّةَ، أَتَعْلَمُونَ مَاذَا قَالَ يَسُوعُ؟ "انْفُضُوا عُبَارَ أَرْجُلِكُمْ، وَادْهَبُوا إِلَى الْمَدِينَةِ التَّالِيَةِ".

تَحْضُرُنِي قِصَّةُ رَوَاها جُونُ وُورَوِيكُ مُونْتِجُومِرِي، وَهِيَ قِصَّةُ تَشَارِلِي الْمَتَشَكِّكِ، الَّذِي جَاءَتْ زَوْجَتُهُ لِإِقْبَالِهِ ذَاتَ صَبَاحٍ قَائِلَةً: "تَشَارِلِي، يَجِبُ أَنْ تَنْهَضَ مِنَ الْفَرَاشِ، سَتَتَأَخَّرُ عَلَى الْعَمَلِ". فَقَالَ تَشَارِلِي لِزَوْجَتِهِ: "لَا يُمَكِّنُنِي الذَّهَابُ إِلَى الْعَمَلِ، لَا يُمَكِّنُنِي التُّهُؤُصُ مِنَ الْفَرَاشِ". فَسَأَلَتْهُ: "لِمَاذَا؟ أَجَابَهَا: "لَأَنِّي مَيِّتٌ، وَالْمَوْتَى لَا يُمَكِّنُهُمُ التُّهُؤُصُ مِنَ الْفَرَاشِ، الْمَوْتَى لَا يُمَكِّنُهُمُ الذَّهَابُ إِلَى الْعَمَلِ". أَجَابَتْ زَوْجَتُهُ: "لَا تَكُنْ سَخِيْفًا يَا تَشَارِلِي. أَنْتَ تَكَلَّمْتَنِي. أَنْتَ مُسْتَقِيمٌ تَمَامًا. أَنْتَ بَحِيرٌ، وَلَا حَظَبَ فِيكَ. انْهَضِ الْآنَ وَادْهَبْ إِلَى الْعَمَلِ". أَجَابَهَا: "لَا أَسْتَطِيعُ. أَنَا مَيِّتٌ". فَلَمْ تَسْتَطِعْ إِفْنَاعَ تَشَارِلِي بِأَنَّهُ حَيٌّ. وَفِي النِّهَايَةِ، اتَّصَلْتُ بِالطَّيِّبِ. فَجَاءَ الطَّيِّبُ، وَفَحَصَ مُؤَشَّرَاتِ تَشَارِلِي الْحَيَوِيَّةَ، وَاسْتَمَعَ إِلَى دَقَّاتِ قَلْبِهِ، وَفَحَصَ نَبْضَهُ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ. وَقَالَ: "تَشَارِلِي، أَنْتَ بَحِيرٌ. لَا حَظَبَ فِيكَ. انْهَضِ الْآنَ وَادْهَبْ إِلَى الْعَمَلِ". فَأَجَابَهُ: "أَسْفُ أَيُّهَا الطَّيِّبُ، لَا أَسْتَطِيعُ ذَلِكَ. لَا يَهْمُنِي مَا تُخْبِرُكَ بِهِ سَمَاعَتِكَ أَوْ مُؤَشَّرَاتِي الْحَيَوِيَّةَ. أَنَا مَيِّتٌ وَأَعْرِفُ ذَلِكَ. وَلَا شَيْءَ مِمَّا تَقُولُهُ سَيَعَيِّرُ رَأْيِي". فَقَالَ الطَّيِّبُ لِزَوْجَةِ تَشَارِلِي: "أَظُنُّ أَنَّ زَوْجَكَ بِحَاجَةٍ إِلَى طَيِّبٍ فِي تَخْصِصٍ آخَرَ". وَهَكَذَا، اسْتَدْعُوا طَيِّبًا نَفْسِيًّا. فَقَالَ الطَّيِّبُ النَّفْسِيُّ: "مَا شُعُورُكَ الْحَقِيقِيُّ يَا تَشَارِلِي؟ لِمَ تَشْعُرُ بِأَنَّكَ رُبَّمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مَيِّتًا؟ هَلْ مَرَّرْتَ بِتَجْرِبَةٍ سَيِّئَةٍ؟" وَابْتَدَأَ يُحَلِّلُ شَخْصِيَّةَ تَشَارِلِي الْمِسْكِينِ دُونَ جَدْوَى. ثُمَّ قَالَ الطَّيِّبُ النَّفْسِيُّ: "أَتَعْلَمُ يَا تَشَارِلِي؟ يُوجَدُ مَبْدَأٌ فِي عِلْمِ الْأَحْيَاءِ تَحْتَاجُ أَنْ تَعْرِفَهُ". فَسَأَلَهُ: "وَمَا هُوَ؟" أَجَابَهُ: "عِنْدَمَا يَمُوتُ النَّاسُ، تَتَوَقَّفُ قُلُوبُهُمْ عَنِ الْحَفَقَانِ، وَيَتَوَقَّفُ الدَّمُ عَنِ الْجَرْيَانِ فِي أَجْزَائِهِمْ. وَلِهَذَا فَالْمَوْتَى لَا يَنْزِفُونَ". فَقَالَ تَشَارِلِي: "حَقًّا؟ لَمْ أَكُنْ أَعْلَمُ ذَلِكَ". أَجَابَهُ: "بِكُلِّ تَأْكِيدٍ". فَقَالَ: "اثْبِتْ لِي ذَلِكَ" فَأَجَابَ: "حَسَنًا". ثُمَّ اصْطَحَبَ تَشَارِلِي إِلَى الْمَشْرَحَةِ، وَأَرَاهُ جُثَّةً. وَأَخَذَ الطَّيِّبُ النَّفْسِيُّ دَبَابِيْسَ صَغِيرَةً، وَابْتَدَأَ يُوْخِزُ بِهَا إِبْهَامَ الْجُثَّةِ، فَلَمْ يَخْرُجْ مِنْهَا دَمٌ. فَقَالَ الطَّيِّبُ النَّفْسِيُّ: "وَالآنَ، هَلْ تُصَدِّقُنِي يَا تَشَارِلِي؟" أَجَابَ تَشَارِلِي: "نَعَمْ، أَنْتَ مُحَقِّقٌ. فَالْمَوْتَى لَا يَنْزِفُونَ". فَابْتَسَمَ الطَّيِّبُ النَّفْسِيُّ وَقَالَ: "هَذَا رَائِعٌ". ثُمَّ قَالَ: "وَالآنَ يَا تَشَارِلِي، تَعَالِ هُنَا. مَا هَذَا؟ دَعْنِي أَرَى إِبْهَامَكَ". فَرَفَعَ تَشَارِلِي إِبْهَامَهُ، وَأَخَذَ الطَّيِّبُ النَّفْسِيُّ إِبْرَةً، وَوَخَزَ إِبْهَامَ تَشَارِلِي، فَابْتَدَأَ يَنْزِفُ. فَقَالَ الطَّيِّبُ النَّفْسِيُّ: "انظُرْ يَا تَشَارِلِي، مَا رَأَيْتَ الْآنَ؟" أَجَابَ: "يَا لِلْعَجَبِ! الْمَوْتَى يَنْزِفُونَ فِي النِّهَايَةِ! أَتَرَوْنَ ذَلِكَ؟ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ لِيُقْنِعَ تَشَارِلِي بِأَنَّهُ لَيْسَ مَيِّتًا، لِأَنَّهُ لَمْ يَشَأْ أَنْ يُصَدَّقَ أَنَّهُ حَيٌّ".

أَتَذَكَّرُ مَبْدَأَ تَعَلَّمْتُهُ فِي الْعَامِ الْأَوَّلِ مِنْ إِيْمَانِي، وَهُوَ قَوْلُ مَاثُورٍ يَقُولُ: "الَّذِينَ يُجَبَّرُونَ عَلَى الْإِفْتِنَاعِ لَا يَتَخَلَّوْنَ عَنِ آرَائِهِمُ الْأَصْلِيَّةِ". وَمِنْ جِهَةِ الْإِنْتِصَارِ الْفِكْرِيِّ فِي الْجِدَالِ، عَالِيَّةُ الْإِنْتِصَارَاتِ لَا تَتَحَقَّقُ عَلَى الْفُورِ. فَهِيَ لَا تَتَحَقَّقُ إِلَّا حِينَ يَضَعُ الشَّخْصُ رَأْسَهُ عَلَى الْوَسَادَةِ لِيَلَا. فَمُعْظَمُ الْأَشْخَاصِ، حِينَ يُخْسِرُونَ فِي جِدَالٍ فِكْرِيٍّ، يُدْرِكُونَ ذَلِكَ

جَيِّدًا. رَبِّمَا لَا يَعْتَرِفُونَ بِالْأَمْرِ، وَرَبِّمَا يَرْفُضُونَ الْإِذْعَانَ، لَكِنَّ عِنْدَمَا يَضَعُونَ رَأْسَهُمْ عَلَى الْوَسَادَةِ فِي نَهَايَةِ الْيَوْمِ، يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ خَسِرُوا.

لِهَذَا الْأَمْرِ أَهْمِيَّتُهُ، بِحَسَبِ كَالْفَنِّ. فَهُوَ يَسُدُّ أَفْوَاهَ الْمُشَاكِسِينَ مِنْ نَاحِيَةٍ. لَكِنَّ يُعِيدُ ذَلِكَ أَيْضًا فِي حِمَايَةِ الْمُؤْمِنِينَ الْجَدِيدِ، الَّذِينَ لَمْ تَتَسَنَّ لَهُمْ فُرْصَةٌ عَمَلِ دِرَاسَاتٍ مُتَقَدِّمَةٍ فِي الدِّفَاعِيَّاتِ، وَالَّذِينَ، حِينَ يَتَعَرَّضُونَ لَوَابِلٍ مِنَ الْإِنْتِقَادَاتِ مِنَ الْعُلَمَاءِ، يُضَابُونَ بِالذُّعْرِ. لِذَا، تَقْتَضِي مُهِمَّةُ عِلْمِ الدِّفَاعِيَّاتِ تَعْزِيزَ ثِقَتِهِمْ فِي إِيمَانِهِمْ. لِأَنَّهُ إِذَا اسْتَطَاعَ الشَّيْطَانُ إِصَابَةَ مُؤْمِنٍ بِالشَّلَلِ - فَهُوَ لَيْسَ مُضْطَرًّا أَنْ يَهْدِمَ إِيمَانَكَ، لَكِنَّ يُمَكِّنُهُ أَنْ يُجْحَلَكَ مِنَ الْمُجَاهِرَةِ بِإِيمَانِكَ، بِسَبَبِ مَا تَسْمَعُهُ مِنَ انْتِقَادِ طَوَالَ الْوَقْتِ. فَإِنْ اسْتَطَاعَ إِحْرَاجَكَ أَوْ إِخْفَاتَكَ، سَيَبْطُلُ مَفْعُولُكَ كَخَادِمٍ لِمَلَكُوتِ اللَّهِ. وَأَتَذَكَّرُ أَنِّي حِينَ كُنْتُ فِي كَلِيَّةِ اللّاهُوتِ، وَتَعَرَّضْتُ لِشَتَّى أَنْوَاعِ النِّظَرِيَّاتِ الشُّكُوكِيَّةِ، لَمْ أَسْتَطِعْ الرَّدَّ عَلَى كُلِّ مَا أَلْقَاهُ الْأَسَاتِذَةُ فِي وَجْهِي، لَكِنِّي شَعَرْتُ بِالرَّاحَةِ الْكَبِيرَةِ عِنْدَمَا دَرَسْتُ تَعَالِيمَ عُلَمَاءٍ وَكَلِّيَّاتٍ أُخْرَى تَمَكَّنُوا مِنَ الرَّدِّ عَلَى أَسْئَلَتِهِمْ. فَقُلْتُ: "مَهْلًا، يُوجَدُ قَدْرٌ مِنَ الْمَعْرِفَةِ لَدَى هَؤُلَاءِ. وَهُنَاكَ عَمَالِقَةٌ فِي الْإِيمَانِ اسْتَطَاعُوا مُوَاجَهَةَ هَؤُلَاءِ". وَهَذَا أَرَاخِي. فَإِلَى أَنْ تَمَكَّنْتُ مِنْ تَعَلُّمِ هَذِهِ الْأُمُورِ بِنَفْسِي، حَصَلْتُ عَلَى بَعْضِ الْمُسَاعَدَةِ الرَّعَوِيَّةِ مِنَ الَّذِينَ مَارَسُوا الدِّفَاعِيَّاتِ. فَفِي الْكَنِيسَةِ الْأُولَى، لَمْ يَسْتَطِعِ الْجَمِيعُ فِعْلَ مَا اسْتَطَاعَ يُوسْتَيُنُوسُ الشَّهِيدُ أَنْ يَفْعَلَهُ. لَكِنَّ يُوسْتَيُنُوسَ الشَّهِيدَ أَضْفَى مُصْدَقِيَّةً عَلَى الْمُجْتَمَعِ الْمَسِيحِيِّ كَكُلِّ. وَهَذَا أَحَدُ أَسْبَابِ الْأَهْمِيَّةِ الشَّدِيدَةِ لِمُهْمَةِ الدِّفَاعِيَّاتِ.

الدُّكْتُورُ أَرْ. سِي. سَبْرُولُ هُوَ مُؤَسِّسُ هَيْئَةِ خِدْمَاتِ لِيْجُونِيَرِ، وَكَانَ أَحَدَ رُعَاةِ كَنِيسَةِ الْقِدِّيسِ أَنْدْرُو (St. Andrews Chapel) فِي مَدِينَةِ سَانْفُورْدِ بُولَايَةِ فُلُورِيدَا، كَمَا كَانَ أَوَّلَ رَئِيسٍ لِكَلِّيَّةِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ لِلِإِصْلَاحِ (Reformation Bible College) وَهُوَ مُؤَلِّفُ أَكْثَرِ مِنْ مِائَةِ كِتَابٍ، بِمَا فِي ذَلِكَ "كَلْنَا لَاهُوتِيُون" و"أَدَهْسِنِي الْأَلْم".